المنظمة العربية للترجمة

كلود كاهن

الإسلام

منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية

ترجمة

حسين جواد قبيسي

مراجعة

د. علي نجيب إبراهيم

بدعم من مؤسسة عبد الحميد شومان



4

العصر الأموي (660 ـ 750)

كانت الفترة التي حكمت خلالها الأسرة الأموية فترة تنظيم الإمبراطورية الناشئة عن الفتوحات العربية الإسلامية. ومن طبيعة الأمور أن النظام الذي يولد من الفتوحات يتطور بعدها بسرعة، بسبب تغير أنماط المعيشة واختلاط الشعوب. ولما لم تتمكن الأسرة الأموية من التكيف الكافي مع المقتضيات الجديدة، فإنها مالبثت أن هوت هي الأخرى.

عندما غدا معاوية خليفةً، أبقى على مركز خلافته في الشام بين أنصاره العرب في سوريا، فكرس بذلك العمل إضعاف الجزيرة حتى لكأن دورها اقتصر على أن تقدم للبشرية نبياً وجيشاً فقط، لتعود بعد ذلك إلى سابق ما كانت عليه، فلا تفعل شيئاً. احتفظت مكة والمدينة طبعاً ببعض الأهمية، وهما المدينتان المقدستان اللتان بقيت فيهما، فترةً من الزمن، بعض الأسر التي اغتنت من غنائم الحروب وعائداتها وشؤون تنظيم الحج بعدما اتسع نطاقه وغدا «عالمياً». ومع ذلك، كان مركز العالم الإسلامي ينتقل أكثر فأكثر إلى خارج الجزيرة العربية، خارج المكان الذي ولد فيه. وعلى صعيد آخر، كان نفوذ العرب الذين استقروا في سوريا وتأثروا بالتقاليد البيزنطية، على الأقل



في محيط الخليفة وبطانته، أقوى من نفوذ عرب العراق المتأثرين بالتقاليد الساسانية.

الفتوحات الجديدة

اكتمل الفتح العربي في العصر الأموي. صحيح أن فتوحات أخرى حصلت في القرن التاسع في حوض المتوسط، ثم ابتداءً من القرن الحادي عشر في الهند، ثم في ظروف مختلفة تماماً، فتوحات العثمانيين فالمغول في الهند كذلك. لكن الصحيح أيضاً أن حدود العالم الإسلامي المعروف، الذي منه انبثقت الحضارة العربية الإسلامية، ولم تتمكن شعوب البلدان المحتلة في ما بعد من اعتمادها بنجاح نموذجاً، كانت قد ارتسمت واستقرت منذ النصف الثاني من القرن الثامن.

على أن الفتوحات اللاحقة لم تجر بالوتيرة والسهولة اللتين جرت بهما الفتوحات السابقة. لم يعد عنصر المباغتة صالحاً في الحروب نظراً إلى طول المسافات وبعد المناطق المستهدفة وتحسبها واستعدادها للمقاومة. كذلك كانت الحملات العسكرية تتوقف بسبب المشكلات الداخلية وميل المقاتلين إلى الخمول والراحة. وكان التقدم متفاوتاً بتفاوت الصعوبات التي تفرضها طبيعة الحدود؛ فالتقدم من ناحية الحدود البيزنطية الذي كان يهم السوريين في المقام الأول، كان شديد الصعوبة بسبب وعورة التضاريس الجغرافية في آسيا الصغرى، وبسبب طبائع الشعوب التي لم تعد سامية، فكانت شديدة التأثر بالحضارة الهلينية، وبقيت متمسكة بولائها للقسطنطينية، وأخيراً بسبب قوة القسطنطينية وقدرة عاصمتها على المقاومة والصمود. لا شك في أن الجيوش العربية اجتازت آسيا الصغرى مراتٍ عديدة تركت آثاراً عميقة في الذاكرة، وأيقظت آمالاً كباراً، لكن الاحتلال الفعلي لم يتجاوز جبال طوروس ولا بعض أقاليم أرمينيا. كانت



البدعة الجديدة أن معاوية الذي استعان بخبرات الشعوب المحلية السورية استطاع أن يبني أسطولاً حربياً وصل إلى قبرص وشواطئ آسيا الصغرى. واستطاع، بين عامي 673 و677، أن يشن هجوماً مزدوجاً من البحر والبر على القسطنطينية، لكنه مني بالفشل. ثم مني بالفشل مرةً أخرى الهجوم الثاني بين عامي 717 ـ 718. خلافاً لذلك، كان من شأن النصر البحري الذي أحرزه الأسطول البيزنطي سنة 747 أنه كرس السيطرة المسيحية على البحر المتوسط لمدة قرن كامل. وخلافاً للإمبراطورية الساسانية، صمدت الإمبراطورية البيزنطية، وبقيت ذات هيبة وسلطان، وإن ضعفت إلى حد كبير وفقدت كثيراً من ممتلكاتها في البلقان. وبدا أن «روما» التي تحولت إلى القسطنطينية، باتت خالدة. وقد أظهرت دراسات حديثة أن الأمويين، ورثة بيزنطة في سوريا، كانوا في فترات الهدنة الطويلة يتعاونون معها في مجالات مختلفة.

أما التقدم من ناحية الشرق فقد استمر ولكن بصعوبة بالغة، وتخللته فترات توقف طويلة. كان احتلال إيران قد اكتمل باستثناء المنطقة الواقعة جنوب بحر قزوين، ومناطق أخرى كانت تتأرجح بين الاحتلال والحكم الذاتي كمناطق الأكراد والديلم والبلوش وغيرهم. ووصلت الحملات العسكرية، ولاسيما البحرية منها التي كانت تنطلق من الخليج الفارسي، إلى حوض الهندوس، من دون أن تلتفت أبداً إلى جبال أفغانستان الحالية. وإلى الشمال الشرقي وراء منطقة خراسان الغنية، كانت تمتد بلاد Transoxiana (التي أطلق عليها العرب تسمية ما وراء النهر) التي عرفت موجات من الاحتلال تتابعت الواحدة بعد الأخرى، كان آخرها الاحتلال التركي والهون البيض (الهياطلة)(•) (Hephtalites) ويتعايش فيها خليط من الأديان

(•) إمبراطورية الهياطلة.



6

القرن العباسي الأول

الأسرة الحاكمة الجديدة أمام مشكلات العالم الإسلامي

ترافقت الحركة التي حملت العباسيين إلى الحكم مع دعاية واسعة لازمها شجب متزايد لزندقة الأمويين المسؤولة عن كل المصائب التي نزلت بالنظام العام مادياً وروحياً. ومن ثم، فإن السؤال الأول الذي طرح غداة «الثورة»، هو كيف سيغير وصول النظام الجديد حالة الأوضاع القائمة، ويقدم الدواء الشافي للأمراض الملحوظة ويباشر في الإصلاحات اللازمة؟

رأينا أن التغير الذي حدث في نظام انتقال الخلافة كان من نقاط ضعف الأسرة الأموية، وأنه أسهم في أسقاطها. لكنه بقي على حاله مع العباسيين، لأن مفهوم الملكية الوراثية أي انتقالها من الأب إلى الابن البكر أو خلاف ذلك، والذي لم يتوصل إلى أن يتحدد بدقة في الجارة بيزنطة، بقي غريباً عن عقلية الشرق الأوسط: فما كان يستأثر فيه بالاهتمام هو الحقوق الجماعية للأسرة المالكة، مع الحفاظ على حرية التدبير بين الأفراد، وهي حرية كان يعوقها تعدد الزوجات. والفرق الذي أخذ يتضح أكثر فأكثر بين الأسرة العباسية



والأسرة التي سبقتها هو من طبيعة أخرى: فبالنظر إلى التصور الذي كان لدى العباسيين حول تفوق أسرة الخليفة على سائر الأسر الأخرى جعلهم يتفادون العقبات الناشئة عن علاقات الزواج مع نساء من أسر رعاياهم، فآثروا العلاقات مع جارياتهم وفضلوها على علاقات الزواج؛ فكل أبناء الخلفاء أنجبتهم الجواري، بدءاً من أبناء هارون الرشيد، مع كل ما يترتب على ذلك من نتائج تنعكس على نقاء عرق الأسرة المالكة. لكن صفة النقاء هذه لم تكن ذات شأن كبير لديهم، ولم تغير شيئاً في مشكلات وراثة الخلافة.

هذه المشكلات يمكن تبينها من خلال استعراض بعض الأحداث البارزة ولو بإيجاز: خلف أبا العباس أخوه المنصور، لا عمهما عبد الله الذي كان طامحاً للخلافة، ولا ابن عم لهما هو عيسى بن موسى، الذي وعده المنصور بالخلافة، ولكن بعد ولده المهدي. وبطبيعة الحال، أرغمه هذا الأخير على التخلي وصرف النظر عنها نهائياً؛ وكان للمهدي ولدان، هما الهادي وهارون، وكان هارون هذا أكثر ذكاء وفطنة من أخيه، وأكثر قرباً منه إلى قلب والدتهما الخيزران، فقرر المهدي أن يكون ولده هارون خليفةً مهما كان الثمن، يأتي بعد ولده الهادي الذي يخلفه مباشرة. لكن عندما تولى الهادي الخلافة، عمل على أن يتولى الخلافة من بعده ولده هو لا أخوه هارون، فسجن أخاه برضى والدتهما الخيزران وبمساعدة منها، ثم مالبث أن توفي. وعندما غدا هارون خليفة، عمل على أن يتعاقب على الخلافة من بعده أولاده الثلاثة: الأمين والمأمون والمعتصم. فولى كلاً منهم حكم إقليم، فجعل الأمين وهو ابنه الثاني لكن من أم عربية حرة، سيداً على البلاد العربية؛ وجعل المأمون، ابنه البكر لكن من جارية فارسية، على إيران؛ والمعتصم على المناطق المتاخمة لبيزنطة. وبالفعل، حكم أبناؤه الثلاثة، ولكن بأي



ثمن! ربما أمكن الاعتقاد بأن النظام كان يتيح، بعد كل خليفة، اختيار أفضل من سيليه في الخلافة. ولكن، على عكس الخلفاء العباسيين الأوائل والأقوياء، كان الخلفاء الذين أعقبوهم يسلمون الخلافة من بعدهم لأبناء معدمي الشخصية أو طغاة مستبدين، فكان ذلك سبباً من أسباب انهيار الخلافة العباسية.

الخلفاء العباسيون

أبو العباس السفاح توفي سنة 136 هـ/ 754 م (تولى الخلافة سنة 132 هـ/ 749 م)

أبو جعفر المنصور توفي سنة 158 هـ/ 775 م

المهدي توفي سنة 169 هـ/ 785 م

الهادي توفي سنة 170 هـ/ 786 م

هارون الرشيد توفي سنة 193 هـ/ 808 م

الأمين توفي سنة 198 هـ/ 813 م

المأمون توفي سنة 218 هـ/ 833 م

المعتصم توفي سنة 227 هـ/ 842 م

الواثق توفي سنة 232 هـ/ 847 م

المتوكل توفي سنة 247 هـ/ 861 م

من أسباب ضعف الخلفاء الأمويين الصراع بين القبائل العربية، إذ لم يقدم وصول الأمويين بحد ذاته إلى الحكم أي حل للمشكلة. كان على القيسيين الذين دعموا آخر خلفاء بني أمية، أن يجدوا أنفسهم في صراع مع العباسيين. إلا أن هذا الصراع فقد أهميته لأن

